تربويات المحن

الاثنين 5 مارس 2018 05:03 م

مؤلمة هي المحن؛ ففي أجوائها يفترق الأحباب، وفي ظلها تعتل الأبدان، وتحت لوائها تعظم الشدائد المعيشية ؛ صور وأشكال عدة من المحن والبلاءات؛ فهذا مغيب وذاك مريض، وثالث غير آمن، ورابع متعثر ، وخامس مظلوم، وسابع مأزوم ، وثامن معطل، وتاسع مفتقر، وعاشر مكتئب؛ وغيرهم كثير

محن لا يقف تأثيرها عند حدود الشخص ونفسه وبدنه؛ ولا حتى محيطه الأسري ودوائر معارفه؛ بل يمتد أثرها على الأمة بأكملها؛ في دفعها وفي بنائها؛ في مقاومتها لعوامل الهدم؛ وفي تعزيزها لعوامل البناء؛ في كشفها لمخططات أعداء الأمة، وفي نشرها للدعوة على وجه البسيطة
لكن!!
هل المحن بهذه الصورة المؤلمة تبشر بالهزائم أم بالانتصارات؟.

إن القارئ للتاريخ يلمس أن أعظم المنح خرجت من أرحام المحن؛ فكم من الانتصارات ولدت من بطون الانكسارات، وكم من العظماء لمع بريقهم من أثر البلاءات، وكم من صفوف طهرتها تمحيصات المحن؛ ففتح الله بها قلوب العباد؛ وأقفال البلاد

انظر للذهب، بل انظر للألماس كيف يحرق في النار ليخرج لنا معدناً نفيساً تدفع فيه آلاف الدولارات والدنانير قد تطول المحنة؛ ويطول معها عذابها، وضيقها وكربها، لكن الله يبشرنا إذا صبرنا بالوعد الصادق والفلاح في الحياة الدنيا وفي الآخرة؛ ورسولنا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يبشرنا أنه لن يغلب عسر يسرين

فلنكن على يقين أن المحن إن كانت تعبر عن العسر، فإن اليسر في ركب اليسرين، وأن تلك المحن هي مبشرات ، ولكنها التمحيصات .

مراحل عدة تمر بها المحن بين مبتدأ ونهاية، وضيق وفرج، وشدة وسعة؛ مراحل تكشف عن جملة من التربويات التي تفرزها المحن والبلاءات في حياة العباد والبلاد

- ففي المحن يعظم الدعاء والتضرع إلى الله؛ فتربى النفس على اللجوء إلى الله؛ فيحسن توكلها؛ وتتلذذ بثمرة قربها من الله، ولا يقف الدعاء عند صاحب البلاء؛ بل يمتد للمحبين والمتعاطفين؛ فتنبت سنة الدعاء بظهر الغيب، ليتشكل بين القلوب البعيدة جسر من الحب الحقيقي والمودة الصادقة؛ جسر وجداني يلمس الممتحن ثمرته أثناء محنته وبعد انفراجها، ولا يعرف أعمدة هذا الجسر ولا مساره إلا الله سبحانه وتعالى

- وفي المحن تتجدد التوبة ومراجعة النفس؛ والتفكير في المظالم واستعراض كراسة الإجابة عبر السنوات المنصرمة، وفي خلوة المحن يستطيع الممتحن استعمال الممحاة ليعدل من إجاباته؛ فيستغفر لذنوبه ويعزم على رد المظالم متى استطاع

- وفي المحن يشتد القرب من الله؛ فيتلذذ الممتحن بالعبادة وتكثر الصلوات، ويطول القيام والركوع والسجود، ويأنس الممتحن بالله، فيرتفع قدره وتمتلئ صحيفته بالحسنات، ويرق قلبه وتعرف الدموع طريقها ومسارها على وجهه؛ فكم من قلوب رققتها المحن، وكم من أنفس غرست فيها المحن جذور الرحمة والبشر؛ وكله من ثمرات الخلوة مع الله سبحانه تعالى، والقرب منه سبحانه

- في المحن يقترب الممتحن من كلام الله وكتابه العزيز فيتلوه كأنه لم يتلوه من قبل؛ ويتدبر معانيه، وتلامس كلماته مشاعره وجدانه، فيجد لها لذة مختلفة، وتولد لديه نوايا عملية تنعكس على ثمرته التكليفية في ممارساته اليومية الحالية والمستقبلية

- وفي المحن يحسن البناء الشرعي والعقدي والعلمي؛ فيزداد المرء بناءً هادفاً، ويتعمق في فهم أسرار النفس والكون والخلق؛

فتتشكل لديه قناعات ومنهجيات يكون لها تأثيرها العملي بعد تجاوز محنته العصيبة.

• وفي المحن تسقط الأقنعة؛ وتنكشف معادن الأنفس، فيعرف الصديق من الزميل، والمحب من المنتفع، وترتسم للممتحن خريطة المعارف وجدول درجاتهم ونفاستهم؛ ليخرج الممتحن من محنته وقد عدل من موقعه على خريطة البشر والمعارف؛ ليضع كل شخص في موضعه المستحق.

• في المحن يعظم البذل والتكاتف؛ كل يبذل بحسب سعته وطاقته؛ فهذا بماله وذلك بمهارته، وهذا بعلمه وخبرته، وأقلهم من يبذل بالكلمة الطيبة والمؤازرة الحسنة والابتسامة الرقيقة؛ فالفقيه هو من يعلم أن الدنيا دول.

• في المحن يقف جميع المحيطين بالممتحن والمحبين له ومعاونيه أمام مسؤلياتهم العملية كل حسب دوره ودرجة قربه من الممتحن؛ فأهله لديهم مسؤولية شرعية وتكليفية نحو رعايته وصيانته وعنايته تبعاً لطبيعة محنته وسبل تخفيف آلامها وجراحها. كما أن المسؤولية لا تقف عند حدود النفس والبدن؛ بل تمتد لميدان عمل الممتحن الذي تأثر بمحنته، فيتم رعاية هذا الميدان والعمل على تطويره حتى يبرأ الممتحن من محنته ويكتب له الله العودة إلى ميدانه العملي مرة أخرى؛ فإن كان تاجراً حافظ الأهل والأبناء والمعاونين على تجارته؛ وتحروا سبل إنجاحها وتنميتها؛ وإن كان مزارعاً بذلوا جهدهم في رعاية حرثه، وإن كان عالماً نشر الأهل والأبناء والطلاب والمحبين علمه ووسعوا من رقعته على وجه البسيطة، وإن استطاعوا ترجموا تراثه للغات عدة؛ ولينظروا في طبيعة محنة عالمهم وكيف يمكن تطويعها بما يسمح بمزيد من الإنتاج العلمي للعالم الممتحن؛ وهكذا في كافة الميادين والحقول.

• وفي المحن يعظم الإنتاج؛ بعكس المتوقع! فالشعوب المضيق عليها؛ تسعى إلى الاكتفاء الذاتي وإلا ماتت من الجوع؛ فتزرع وتصطاد وتصنع وتنتج وتبدع؛ فتنهض من حيث لا يحتسب المضيق. والفرد الممتحن المعطل عن الانتقال لعلة داخلية أو خارجية؛ يتولد لديه أوقات كثيرة يعيد في ضوئها ترتيب أولوياته الإنتاجية وفق المتاح من الموارد والإمكانيات؛ فينتج ويبدع ويخرج للأمة ما لم يكن يخرج لو كان في ترحاله القديم.

• قد تغيب المحن بعض الكفاءات؛ لكنها مجريات القدر، فتبرز للأمة كفاءات ثانوية، قدر لها أن تتولى زمام المبادرة في لحظات عصيبة، فتحملت المسؤولية، وأبدعت وأظهرت من المهارات ما كان مختبئاً. وهذا يوجهنا إلى ضرورة التربية المبكرة للصفوف القيادية الثانوية المجهزة لحمل المسؤولية متى عجز الرائد عن القيام بدوره، فالشخصية المركزية التي تملك كل خيوط ميدانه في يديها؛ هذا الميدان هو أول المتضررين أثناء محنته، وهذه القاعدة تسري على الأب والتاجر والمدير، وكل رب عمل أو رعية مركزي التوجه.

• في المحن تعظم كلمة الحق عند الظالم؛ فيأخذ المقتدر بيد المظلوم، ويدفع الظالم عن ظلمه؛ لتحل البركة على الثلاثة. وهنا وقفة تربوية عظيمة: فإذا كانت المحنة على المظلوم كبيرة؛ فإنها على المقتدر أكبر؛ وقليل من ينجح في الامتحان. فليتأملها المعني قليلاً!

• في المحن تربى الشعوب عملياً على أن دوام الحال من المحال، وأن الدنيا ليست رخاءً دائماً ولا شدة مستدامة؛ بل هي خليط بين هذا وذاك؛ فلا صحيح يحمي نفسه من العلة، ولا غني يحصن نفسه من الفقر؛ وعزيز الأمس ذليل اليوم ، فترى الشعوب المحنة من الخارج فتراقب مكوناتها وتقف على أطرافها، ترى القوي والضعيف، ترى الممتحن قبل محنته وأثنائها وبعدها، فتكون قناعتها حيال أطرافها، ومن ثم يوطن المراقب نفسه ويهذبها ويرد الأمور كلها لله؛ويبحث في ذات الوقت عن موقعه منها، ودوره في تخفيف وطأتها على الممتحن، ويدرك أنه ليس بعيداً عن دائرتها فيسأله سبحانه العافية، ويدعوا لكل ممتحن بظهر الغيب، وليأخذ حذره من الدخول في دائرتها وهو في غفلة من أمره، فيخفف على الدوام أحماله وأوزاره .

• في المحن ينكشف تراث الممتحن للعامة؛ ويعم خيره في مواطن لم يكن يتوقعها قبل محنته؛ فالغني الممتحن يتقرب إلى الله ببذل المال في فعل الخيرات، فإن كان حاجباً لزكاته أو مقصراً فيها من قبل، نجده يخرج زكواته المتأخرة كلها جملة واحدة، وإن كان من محبي البذل والعطاء، نجده يضاعف من إنفاقه وبذله وعطائه في قنوات خيرية متعددة. إن الغني الممتحن لديه فرصة دنيوية ذهبية في أن يراجع نفسه مع أمواله الطالحة فرصة ربانية تحقق له التطهر والتبرؤ من تلك الأموال في حياته الدنيا قبل أن يُسأل عنها في آخرته، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

وفي الختام أسأل الله أن يفرج كرب كل ممتحن، وأن يجعل الله محنته في ميزان حسناته، وأن يخرجه منها معافاً في بدنه، نافعاً لأمته، رافعاً للواء دينه، وفائزاً في الدنيا والآخرة.